

## تفسير سورة الملك

وهي مكية

روى أحمد عن أبي هريرة ، عن رسول الله ﷺ قال : « إن سورة في القرآن ثلاثين آية شفعت ل صاحبها حتى غفر له : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴾ » . ورواه أهل السنن الأربعة . وقال الترمذى : هذا حديث حسن (١) .

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَتَكْفُرُونَ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ أَنْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَائِبًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ رَئَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِغٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيْطَانِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴿٥﴾

بمجد تعالى نفسه الكريمة ، ويخبر أنه بيده الملك ، أى : هو المتصرف فى جميع المخلوقات بما يشاء لا معقب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل لقهره وحكمته وعدله . ولهذا قال تعالى : ﴿ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ ﴾ : ومعنى الآية : أنه أوجد الخلاق من العدم ، ليبلوهم ويختبرهم أيهم أحسن عملاً ؟ كما قال : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَشْرَاقًا فَاحْتَاكُم ﴾ [البقرة: ٢٨] . فسمى الحال الأول - وهو العدم - موتاً ، وسمى هذه النشأة حياة . ولهذا قال : ﴿ ثُمَّ يُعْتَكُمُ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٨] . وقوله : ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَتَكْفُرُونَ ﴾ أى : خير عملاً ، كما قال محمد بن عجلان : ولم يقل : أكثر عملاً ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴾ أى : هو العزيز العظيم المتبوع الجنتاب ، وهو مع ذلك غفور لمن تاب إليه وأتاب ، بعدما عصاه وخالف أمره ، وإن كان تعالى عزيزاً ، هو مع ذلك يفر ويرحم ويصفح ويتجاوز .

ثم قال : ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴾ أى : طبقة بعد طبقة ، وهل هن متواصلات بمعنى أنهن علويات بعضهن على بعض ، أو متفاصلات بينهن خلاء ؟ فيه قولان ، أصحهما الثانى ، كما دل على ذلك حديث الإسراء وغيره .

وقوله : ﴿ مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ ﴾ أى : بل هو مصطبب مستو ، ليس فيه اختلاف ولا تنافر ولا مخالفة ، ولا نقص ولا عيب ولا خلل ؛ ولهذا قال : ﴿ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ ﴾ أى : انظر إلى السماء فتأملها ، هل ترى فيها عيباً أو نقصاً أو خللاً أو فطوراً ؟ . قال ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، وغيرهم فى قوله : ﴿ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ ﴾ أى : شقوق . وقال السدى : أى :

(١) المسند (٨٢٥٩) وأبو داود (١٤٠٠) والترمذى (٢٨٩١) وابن ماجه (٣٧٨) ، وصححه الألبانى .

من خُرُوق . وقال قتادة : أى : هل ترى خللاً يا بن آدم ؟

وقوله : ﴿ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴾ قال : مرتين ﴿ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا ﴾ قال ابن عباس : ذليلاً ؟ وقال مجاهد ، وقاتدة : صاغراً ﴿ وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ قال ابن عباس : معنى : وهو كليل . وقال مجاهد ، وقاتدة ، والسدى : الحسير : المتقطع من الإعياء . ومعنى الآية : إنك لو كررت البصر ، مهما كررت ، لانقلب إليك ، أى : لرجع إليك البصر ، ﴿ خَاسِئًا ﴾ عن أن يرى عيباً أو خللاً ، ﴿ وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ أى : كليل وقد انقطع من الإعياء من كثرة التكرار ، ولا يرى نقصاً . ولما نفى عنها فى خلقها النقص بين كمالها وزيتها فقال : ﴿ وَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ ﴾ وهى الكواكب التى وضعت فيها من السيارات والثوابت .

وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ ﴾ : عاد الضمير فى قوله : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا ﴾ على جنس المصابيح لا على عينها ؛ لأنه لا يرمى بالكواكب التى فى السماء ، بل بشهب من دونها ، وقد تكون مستمدة منها ، والله أعلم . وقوله : ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴾ أى : جعلنا للشياطين هذا الخنزى فى الدنيا ، وأعدنا لهم عذاب السعير فى الاخرى ، كما قال : فى أول الصافات : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكُوكُوبِ . وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ . لَا يَسْمُومُونَ إِلَى الْمَعَالِىِ الْأَعْلَىٰ وَيُقَذِّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ . دُخُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ . إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ [الصافات:٦-١٠] . قال قتادة : إنما خلقت هذه النجوم لثلاث خصال : خلقها زينة للسماء ، ورجوماً للشياطين ، وعلامات يهتدى بها ، فمن تناول فيها غير ذلك فقد قال برأيه وأخطأ حظه ، وأضاع نصيبه ، وتكلف ما لا علم له به .

﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَيَسَّرَ الْمَصِيرَ ﴾ إِذَا أَلْقَا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَيْعًا وَهِيَ تَفُورٌ ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أَلْقَى فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿ فَأَعْرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ فَنَسْحَقُوا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾

يقول تعالى : ﴿ و ﴾ اعتدنا ﴿ لِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَيَسَّرَ الْمَصِيرُ ﴾ أى : بسن المال والمنتقلب . ﴿ إِذَا أَلْقَا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَيْعًا ﴾ قال ابن جرير : معنى الصباح ﴿ وَهِيَ تَفُورٌ ﴾ قال الثورى : تغلى بهم كما يغلى الحىب القليل فى الماء الكثير .

وقوله : ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ أى : تكاد يفصل بعضها من بعض ، من شدة غيظها عليهم وحقها بهم ، ﴿ كُلَّمَا أَلْقَى فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ . قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴾ : يذكر تعالى عدله فى خلقه ، وأنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه وإرسال الرسول إليه ، كما قال : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء:١٥] . وقال تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَصَبَّتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [الزمر:٧١] . وهكذا عادوا على أنفسهم بالملامة ، وندموا حيث لا تنفعهم الندامة ، فقالوا : ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ أى : لو كانت لنا عقول تنتفع بها أو نسمع ما أنزل الله من الحق ، لما كنا على ما كنا عليه من الكفر بالله والاعتزاز به ، ولكن

لم يكن لنا فهم نعى به ما جاءت به الرسل ، ولا كان لنا عقل يرشدنا إلى اتباعهم ، قال الله تعالى : ﴿ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحِقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ . روى الإمام أحمد عن أبي البختري<sup>(١)</sup> الطائي قال : أخبرني من سمعه من رسول الله ﷺ أنه قال : « لن يهلك الناس حتى يُعذبوا من أنفسهم »<sup>(٢)</sup> .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ ﴿ وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ ﴿

يقول تعالى مخبراً عن يخاف مقام ربه فيما بينه وبينه إذا كان غائباً عن الناس ، فيتكف عن المعاصي ويقوم بالطاعات ، حيث لا يراه أحد إلا الله ، بأنه له مغفرة وأجر كبير ، أى : يكفر عنه ذنوبه ، ويجازى بالثواب الجزيل ، كما ثبت فى الصحيحين : « سبعة يظلهم الله فى ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله » ، فذكر منهم : « رجلا دعت امرأه ذات منصب وجمال فقالت : إني أخاف الله ، ورجلا تصدق بصدقة فأخفاها ، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه »<sup>(٣)</sup> .

ثم قال تعالى منبهاً على أنه مطلع على الضمائر والسرائر : ﴿ وَأَسْرُوا قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُمْ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أى : بما يختر فى القلوب ، ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ ؟ أى : ألا يعلم الخالق . وقيل : معناه : ألا يعلم الله مخلوقه ؟ والاول أولى<sup>(٤)</sup> ، لقوله : ﴿ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ .

ثم ذكر نعمته على خلقه فى تسخير له الأرض وتذليله إياها لهم ، بأن جعلها قارة ساكنة لا تميد ولا تضطرب ، بما جعل فيها من الجبال ، وأنبع فيها من العيون ، وسلك فيها من السبل ، وهيا فيها من المنافع ومواضع الزروع والشمار ، فقال : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا ﴾ أى : فسافروا حيث شتم من أقطارها ، وترددوا فى أقاليمها وأرجائها فى أنواع المكاسب والتجارات ، واعلموا أن سعيتكم لا يجدى عليكم شيئاً ، إلا أن يسره الله لكم ؛ ولهذا قال : ﴿ وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ﴾ ، فالسعى فى السبب لا ينافى التوكل ، كما روى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب قال : إنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله ، لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خصاصاً وتروح بطاناً » . رواه الترمذى وابن ماجه ، وقال الترمذى : حسن صحيح<sup>(٥)</sup> . فآثبت لها رواحاً وغدوا لطلب الرزق ، مع توكلها على الله ، عز وجل ، وهو المسخر المسير المسبب . ﴿ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ أى : المرجع يوم القيامة . قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدى : « مَنَاكِبِهَا » : أطرافها وفجاجها ونواحيها . وقال ابن عباس وقتادة : « مَنَاكِبِهَا » : الجبال . وقال أبو الدرداء : هى الجبال .

﴿ ءَأَمِنْتُمْ مَّن فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخِفَّ بِكُمْ الْأَرْضُ إِذَا هِيَ تَمُورُ ﴾ ﴿ أَمْ أَمِنْتُمْ مَّن فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْمَلُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ ﴾ ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرٍ ﴾ ﴿ أَوْلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ

(١) فى المطبوعة : « البختري » بالحاء المهملة ، وهو خطأ .

(٢) المسند (٤/ ٢٦٠) ، والحديث رواه أبو داود (٤٣٤٧) ، وصححه الألبانى .

(٣) البخارى (٦٦٠) ومسلم (١٠٣١/ ٩١) . (٤) « أولى » : ساقطة من المطبوعة .

(٥) المسند (٢٠٥) والترمذى (٢٣٤٤) وابن ماجه (٤١٦٤) . وصححه إسناده الشيخ أحمد شاكر .

فَوَقَّهْمُ صَفَّاتٍ وَيَقْبِضُنَّ مَا يَمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿٤٥﴾

وهذا أيضاً من لطفه ورحمته بخلقه أنه قادر على تعذيبهم ، بسبب كفر بعضهم به وعبادتهم معه غيره وهو مع هذا يحلم ويصفح ، ويؤجل ولا يعجل ، كما قال : ﴿ وَلَوْ يَأْخُذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظُهُورِهِمْ مِنْ ذَنْبِهِمْ وَلَكِنَّ يُوَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴾ [فاطر: ٤٥]. وقال هاهنا : ﴿ أَلَمْ تَمُنْ مِنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴾ أى : تذهب وتجيء وتضطرب ، ﴿ أَمْ أَلَمْ تَمُنْ مِنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ﴾ أى : ريحا فيها حصىء تدمغكم ، كما قال : ﴿ أَلَمْ تَمُنْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴾ [الإسراء: ٦٨] . وهكذا توعدهم هاهنا بقوله : ﴿ فَاسْتَلْمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ ﴾ أى : كيف يكون إنذارى وعاقبة من تخلف عنه وكذب به .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ أى : من الامم السابقة والقرون الخالية ، ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أى : فكيف كان إنكارى عليهم ومعاقبى لهم ؟ أى : عظيماً شديداً أليماً . ثم قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ لَوْقِهِمْ صَافَاتٍ وَيَقْبِضُنَّ ﴾ أى : تارة يصفقن أجنحتهن فى الهواء ، وتارة تجمع جناحاً وتنتشر جناحاً ﴿ مَا يَمْسِكُهُنَّ ﴾ أى : فى الجو ﴿ إِلَّا الرَّحْمَنُ ﴾ أى : بما سخر لهن من الهواء ، من رحمته ولطفه ، ﴿ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴾ أى : بما يصلح كل شىء من مخلوقاته . وهذه كقوله : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يَمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل: ٧٩] .

﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنْ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴾ ﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُمْ بَلَ لَجُوعًا فِي عُسْرٍ وَأَنْفُورٍ ﴾ ﴿ أَمَّنْ يَمْشِي مَكْبًا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ ﴿ يَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعْلَمُهُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّتَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهٖ تَدْعُونَ ﴾

يقول تعالى للمشركين الذين عبدوا غيره ، يبتغون عندهم نصراً وورقاً ، منكراً عليهم فيما اعترضوه ، ومُخبراً لهم أنه لا يحصل لهم ما املوه ، فقال : ﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ ﴾ أى : ليس لكم من دونه من ولى ولا واق ، ولا ناصر لكم غيره ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنْ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴾ . ثم قال : ﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ﴾ ؟ أى : من هذا الذى إذا قطع الله رزقه عنكم يرزقكم بعده ؟ ! أى : لا أحد يعطى ويمنع ويخلق ويرزق ، وينصر إلا الله ، عز وجل ، وحده لا شريك له ، أى : وهم يعلمون ذلك ، ومع هذا يعبدون غيره ؛ ولهذا قال : ﴿ بَلْ لَجُّوا ﴾ أى : استمروا فى طغيانهم وإفكهم وضلالهم ﴿ فِي عُسْرٍ وَأَنْفُورٍ ﴾ أى : معاندة واستكباراً ونفوراً على أديارهم عن الحق ، لا يسمعون له ولا يتبعونه .

ثم قال : ﴿ أَمَّنْ يَمْشِي مَكْبًا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ ؟ وهذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر ، فالكافر مثله فيما هو فيه كمثل من يمشى مكباً على وجهه ، أى : يمشى منحنيا لا مستويا على وجهه ، أى : لا يدرى أين يسلك ولا كيف يذهب ؟ بل تائه حائر ضال ، أهنا أهدي ﴿ أَمَّنْ

يَمْشِي سَوِيًّا ﴿٢٨﴾ : أى : منتصب القامة ﴿عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ : أى : على طريق واضح بين ، وهو فى نفسه مستقيم ، وطريقه مستقيمة . هذا مثلهم فى الدنيا ، وكذلك يكونون فى الآخرة . فالؤمن يحشر يمشى سويًّا على صراط مستقيم ، مُفَضَّصٌ به إلى الجنة الفيحاء ، وأما الكافر فإنه يحشر يمشى على وجهه إلى نار جهنم ، ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ . مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ . وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْتَوْفُونَ . مَا لَكُمْ لَا تَنْصَرُونَ . بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَلْمُونَ﴾ [الصافات: ٢٢- ٢٦] . روى الإمام أحمد عن أنس ابن مالك قال : قيل : يا رسول الله ، كيف يحشر الناس على وجوههم ؟ فقال : « أليس الذى أمشاهم على أرجلهم قادراً على أن يمشيهم على وجوههم » . وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين<sup>(١)</sup> .

وقوله : ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ﴾ : أى : ابتداء خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً ، ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ : أى : العقول والإدراك ، ﴿فَلَيْلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ : أى : قلماً تستعملون هذه القوى التى أنعم الله بها عليكم فى طاعته وامتنال أوامره وترك زواجه . ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ : أى : بشكم ونسركم فى أقطار الأرض وأرجائها ، مع اختلاف الستكم فى لغاتكم والوانكم ، وحلاكم وأشكالكم وصوركم ، ﴿وَالِيَهُ تَحْشُرُونَ﴾ : أى : تجمعون بعد هذا التفرق والشتات ، يجمعكم كما فرقكم ويعيدكم كما بداكم .

ثم قال مخبراً عن الكفار المنكرين للمعاد المستبعدين وقوعه : ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ : أى : متى يقع هذا الذى تخبرنا بكونه من الاجتماع بعد هذا التفرق ؟ ﴿قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ﴾ : أى : لا يعلم وقت ذلك على التعمين إلا الله ، عز وجل ، ولكنه أمرنى أن أخبركم أن هذا كائن وواقع لا محالة فاحذروه ، ﴿وَأِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ : وإنما على البلاغ ، وقد أدبته إليكم .

قال الله تعالى : ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سَيِّئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ : أى : لما قامت القيامة وشاهدها الكفار ، وراوا أن الأمر كان قريباً ؛ لأن كل ما هو آت وإن طال زمنه ، فلما وقع ما كذبوا به ساءهم ذلك ، لما يعلمون ما لهم هناك من الشر ، أى : فأحاط بهم ذلك ، وجاءهم من أمر الله ما لم يكن لهم فى بال ولا حساب ، ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا كَسَبُوا﴾ (٢) وحق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴿[الزمر: ٤٨] ؛ ولهذا يقال لهم على وجه التقرير والتوبيخ : ﴿هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَدْعُونَ﴾ : أى : تستعجلون .

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ . وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾

يقول تعالى : ﴿قُلْ﴾ : يا محمد لهؤلاء المشركين بالله الجاحدين لنعمه : ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ : أى : خَلَّصُوا أَنْفُسَكُمْ ، فإنه لا منقذ لكم من الله إلا التوبة والإنابة ، والرجوع إلى دينه ، ولا ينفعكم وقوع ما تتمنون لنا من العذاب والنكال ، فسواء عذبنا الله أو رحمنا ، فلا مناص لكم من نكاله وعذابه الأليم الواقع بكم .

(١) المسند (٣/ ١٦٧) والبخارى (٤٧٦٠) ومسلم (٥٤/ ٢٨٠٦) .

(٢) فى المطبوعة : « ما عملوا » وهو خطأ .

ثم قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّنَا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ أى : آمنا برب العالمين الرحمن الرحيم ، وعليه توكلنا فى جميع أمورنا ، كما قال : ﴿ فاعبده وتوكل عليه ﴾ [مرد: ١٢٣] . ولهذا قال : ﴿ فستعلمون من هو فى ضلال مبين ﴾ ؟ أى : منا ومنكم ، ولما تكون العاقبة فى الدنيا والآخرة ؟ . ثم قال : ﴿ قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا ﴾ أى : ذاهبا فى الأرض إلى أسفل ، فلا ينال بالفتوس الحداد ، ولا السواعد الشداد ، والغائر عكس النابيع ؛ ولهذا قال : ﴿ فمن يأتيكم بماء معين ﴾ ؟ أى : نابيع سائح جار على وجه الأرض ، لا يقدر على ذلك إلا الله ، عز وجل ، فمن فضله وكرمه أن أتبع لكم المياه وأجراها فى سائر أقطار الأرض ، بحسب ما يحتاج العباد إليه من القلة والكثرة ، فله الحمد والمنة .